هل هناك نهاية للثورات المعرفية؟

جيروم برونر Jérome Bruner(*)

ترجمة: د. بنعيسى زغبوش
مختبر العلوم المعرفية (LASCO)
كلية الآداب والعلوم الإنسانية-ظهر المهراز
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس – المغرب

• ملخص

على امتداد تاريخ علم النفس، لم تتوقف الثورة المعرفية عن إحراز التقدم. تبحث الثورة التي تجري حاليا عن تفسير كيفية توصل الأفراد إلى منح دلالات للعالم المعقد الذي يحيط بهم: لقد حان الوقت لفهم مختلف أشكال بلورة المعنى، إذ تم اقتراح أربع صيغ متمايزة لها. الأولى هي الصيغة بين-الذاتية intersubjective، وتتعلق بتأسيس بين-الذاتية وتشكيلها والحفاظ عليها. والثانية هي صيغة إنجاز الفعل actionnel، وتتعلق بتنظيم الفعل. والثالثة هي الصيغة المعيارية normatif، وتدمج العناصر الخاصة في سياقات معيارية وتُعبّر عن نفسها من خلال فرض قيود على الصيغتين الأوليتين. تشترك هذه الصيغ الثلاث في كونها تابعة بشكل قوي للسياق. تعدّ المسردات -أو الحكايات- أدوات بامتياز تسمح بإرساء الصيغ الثلاث الأولى لبلورة المعنى في مجموعة أكثر تنظيما. يمكن اقتراح أن الصيغة الرابعة لبلورة المعنى، هي الصيغة القضوية propositionnel، وتهدف إلى جعل الصيغ الثلاث السابقة مستقلة عن السياق بإخضاعها للمراجعة وللتبريرات المنطقية.

* * *

لم آت إلى هنا باعتباري مؤرخا للثورة المعرفية. فهذا النوع من الممارسة ليس مجال اشتغالي، وأكثر من ذلك، لازلنا منشغلين أكثر بتمهيد الطريق حتى ندّعي بأننا مؤرخون. إن الحقيقة الكبرى التي يعلمنا إياها علم التاريخ المكتوب historiographie الحديث، والذي من المفروض أن

---

* مرجع المقال:

Bruner, Jerome. (1995). Y a-t-il une fin aux révolutions cognitives? Revue Française de Pédagogie, 11, 73-84.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا المقال خلاصة محاضرة ألقاها جيروم برونر في جامعة يورك York في مدينة طورنطو الكندية في أكتوبر 1993.

يجعلنا أكثر تواضعا، هو أن الماضي بناء: فالطريقة التي نبنيه بها خاضعة لوجهة النظر التي نتبناها في علاقتها بالماضي وفي علاقتها بطبيعة المستقبل الذي نحاول أن نجعله مشروعا [1].

تتجلى وجهة نظري الشخصية في كون الثورة المعرفية تحرز تقدما مستمرا، وأنها كانت دائما كذلك على امتداد تاريخ السيكولوجيا، وأن ذلك كان، حتما، بفعل طبيعة موضوع السيكولوجيا، أو ربما، ببساطة، بفعل طبيعة التجربة الإنسانية نفسها. تجد هذه الثورة المستمرة جذورها، في رأيي، في الاختلافات بين ما نعتقده متعلقا بوعينا الشخصي وما نعتبره "خارجا عنا" وهو إذن عام، وقابل لإعادة الإنتاج والتبليغ [2]. ومهما كانت الوسائل المستعملة للمنع الرسمي للطابع الشخصي للسيكولوجيا "الحقيقية" (كانت إجراءات الإقصاء دائما على رأس أولوياتنا)، فإننا نظل بالنسبة للبعض، أو حتى بالنسبة للجميع، منشغلين بتكتيكات الإقصاء هذه. وحتى أسلافنا السلوكيين الأكثر تشددا في "العلمية" يشعرون بندم خفي، وهو ما تشهد به مفاهيم متضاربة من مثل تلك المتعلقة بـ"الاستجابات الضمنية" [3]، و"أفعال المثيرات الخالصة" [4] ومفاهيم أخرى من الصنف نفسه. يكمن النظير المعاصر لهذه الظاهرة في رفض المجال الخاص، لكن بشكل جذري أكثر في حدود معينة أيضا. يحيل الحقل الفردي على "سيكولوجيا العموم" (psychology folk) التي يمكن إما أن نتجاهلها لأنها "غير ملائمة ودون أساس" وإما اعتبارها ظاهرة ثانوية épiphénomène شبحيّة ستُترك لاحقا جانبا باعتبارها عنصرا فاشلا دون نتائج لمجموع آلات الحوسبة [5].

يبدو لي أن الفضل يعود، منذ مدة طويلة، إلى كتاب [عن الحس] De Sensu لأرسطو، في تبلور وعيي باستمرارية الثورة المعرفية. هذا الثعلب الهرم افتتح كتابه المثير بالسؤال حول معرفة كيف يمكن أن نكون متيقنين من أن الأمر يتعلق فعلا بابن كليون Cléon الذي ينزل أدراج بارتينون Parthénon، اعتمادا على الإيمان بحواسنا الخاصة، على اعتبار أن كلا منها محدد في نوعيته

---

1 - Voir, par exemple, MINK L 0 (1978), « Narrative form as a cognitive instrument », in CANARY R H. et KOZICKI H. (eds), The Writing of History: Literary Form and Historical Understanding, Madison University of Wisconsin Press.

2 - POPPER K. (1972), Objective Knowledge, New York: Oxford University Press.

3 - Voir, par exemple, la définition donnée par H B English et A C. English du « comportement implicite » (implicit behavior) comprenant « le monologue intérieur » (internal speech) dans A Comprehensive Dictionary of Psychological and Psychoanalytical Terms (1958), London Longmans, Green.

4 - Voir, par exemple, la définition donnée par H B English et A C. English du « comportement implicite » (implicit behavior) comprenant « le monologue intérieur » (internal speech) dans A Comprehensive Dictionary of Psychological and Psychoanalytical Terms (1958), London Longmans, Green.

5 - C. HULL utilise ces termes de « actes de pur stimulus », (pure stimulus acts) pour désigner les actes qui établissent les stimuli « pnonoceptifs », comme préparation à une réponse opératoire Cf son ouvrage intitulé: A Behavior System (1952), New Haven Yale University Press.

STICH SP (1983), From Folk Psychology to Cognitive Science: The Case Against Belief, Cambridge MIT Press. Voir aussi CHRISTENSEN S M. et TURNER DR. (1993), Folk Psychology and the Philosophy of Mind, Hillsdale NJ Erlbaum.

الخاصة، أي رؤية تلألؤ النور، والأصوات المسموعة، واللمس، الخ. كيف يمكن بناء العالم انطلاقا من هذا الركام المتعدد من الحواس؟ بدأ أرسطو بدحض النظرية القديمة التي مفادها أن المثيرات stimuli هي نسخ للأشياء الواقعية، بالرغم من أنه لا يضع أبدا موضع شك الوجود الفعلي للعالم الواقعي، حتى بعد أن برهن باقتضاب على أننا لا يمكن أن ندركه مباشرة. ولكي يغطي على الجهل الذي ينتج عن استنتاجه، خلق حينه مفهوما جديدا ورائعا هو "عضو المنطق" sensus communis(**) لينجز ما عجزت عنه الإحساسات الخاصة، وهو المتمثل في بناء عالم له دلالة ما، في هذه الحالة، إنه ابن كليون Cléon، وليس مجموعة من تلألآت النور والضجيج والإحساسات البشرية.

كيف يصل "عضو المنطق" إلى ذلك؟ يجب، في البداية، أن نُدخل في اللعبة الـ"نحن" (Noûs)، الروح أو العقل، باعتبار أن أحد قدراتها هي "الترابط" (l'association). مبدئيا، تضمن قوانين الترابط، أن تجربتنا الخاصة تعكس العالم "الواقعي" والتي لا يمكن لأحاسيسنا الخاصة أن تنقله إلا بشكل تجزيئي. لقد كان أرسطو أكثر دهاء من أن يسقط في فخ ابستيمولوجيا التطابق الخالص. ولكي يلتف على هذا الفخ، منح لـ"النحن" عقلا Raison، ووسيلة يضمن بفضلها "عضو المنطق" التعرف على حقائق ضرورية، عوض الحقائق العارضة فقط التي تمنحها ارتباطات الأحاسيس. وهكذا، يمكن بعد الآن أن نشق طريقا بواسطة الأحاسيس والعقل في الآن نفسه إلى أن نصل إلى ابن كليون Cléon على درجات بارتينون Parthénon. نحصل من هنا، آه! معجزة، على دلالة دون أن تكون مصبوغة في الوقت نفسه بالتجربة الخاصة.

ولكن يجب بداهة، أن تكون هناك أشياء أكثر وراء كل هذا، وإلا لم يكن ليشعر أرسطو بضرورة كتابة كتاب "البلاغة" (La Rhétorique) ليشرح، مثلا، لماذا أن بعض الأوصاف أو بعض التصورات حول العالم أكثر إقناعا من أخرى أو أكثر احتمالا منها، ويمكن، في الآن نفسه، اعتبارها أيضا "حقيقية"، أو لماذا أن بعض التمثلات حول العالم أكثر "تكيفا شكلا" mémitiques من أخرى، إنه موضوع اهتمام أرسطو في كتاب "فن الشعر" (La Poétique). يحتوي كتاب "فن الشعر" بالفعل أولى النقاشات الفعلية المعروفة إلى يومنا هذا حول الضرورة السردية nécessité narrative (مثلما هو الشأن في "التراجيديا"). ما الدلالة التي يمكن أن تحملها هذه الأخيرة؟ وكيف يمكن للضرورة الدرامية أن تظهر أكثر واقعية لدرجة أنها تثير نوعا من التطهير catharsis لدى أفراد راسخين في العالم الواقعي بواسطة العقل وقوانين الارتباط [1] ؟

مهما كان الأمر، فإن أرسطو كان بصدد إنجاز ثورة معرفية. ألم يرفض قبل كل شيء المفهوم الأعرج لأفلاطون، والذي حسبه لا يمكن أن تحصل المعرفة الحقيقية عبر الأصوات، ولكن فقط عبر التفكير في عالم مركب من الأشكال المثالية، حيث الحقائق هي حقائق ضرورية مثل تلك

** كان أرسطو يعتقد أن المنطق عضو من الأعضاء التي يتوفر عليها جسم الإنسان، موجود بجانب القلب، وسماه Sensus Communis [المترجم]

1 - La meilleure source à consulter au sujet des œuvres d'Anstote est celle de ROSS W D Ed (1908-1952), The Works of Aristotle translated in English, Oxford: Oxford University Press.

التي حيّنها علماء الهندسة المبجلين في عهده [1]؟ إن الفكر العقلاني بعد الآن، وبفضل أرسطو، لن يتزود أبدا بواسطة التفكير فقط، ولكن أيضا بواسطة شهادات الحواس: إن دور المعلومات الحسية ("المدخل" input) قد دخَل الحلبة ولن يغادرها أبدا. بعد ذلك بعدة عقود، نجد ليبنز Leibniz الذي يردد صدى هذه الثورة المعرفية الأولى بقولته ذائعة الصيت: "لا شيء يدخل العقل إلا عبر الحواس، ما عدا العقل نفسه" 2 . وبالرغم من محاولة جون لوك John Locke التقليل من تدخل العقل في عالم الحواس (لأسباب سياسية أساسا من صنف "اغتيال ملك")، فالعقل ذاته نجح بعناية في الاستمرار في وضعية مستترة على مسرح كل الثورات المعرفية المستقبلية[3] .

لكن الإمبريقيين الإنجليز عرفوا جيدا كيف يعيدون قذف الكرة. إن ثورتهم، لكي نستحضر الألفاظ التي استعملها شارل تايلر Charles Taylor، تتجه "ضد السحر" (against enchantment)، وضد بناءات فكر متروك لنفسه[4]. الثورة العلمية قد انطلقت وأصبح واجبا على كل تأمل نظري، حتى البسيط منه، متعلق بالعالم، أن يخضع للقانون الإمبريقي. وبالنسبة للوك Locke، يمكن اختزال حتى الأفكار الأكثر تعقيدا في إحساسات أولية متعددة العناصر، والتي يمكن أن تكون بدورها موضوع فحص مباشر، ولعبة يمكن أن يلعبها كل المشاركين فيها، سواء كان المشترَك بين الفانين أو الملك، بين الطبيعيين أو الميطافيزيقيين[5] . وهناك في الشمال، في إدمبورغ Edimbourg، أخذ المذهب الجديد منحى شكياً، إذا جاز القول، لاسيما مع دافيد هيوم David Hume: لا يمكن إرجاع كل شيء إلى إحساسات أولية، ولكن ما لا يمكنه أن يكون كذلك وجب إبعاده ببساطة[6] .

لكن، وكما هي العادة، يمكن أن تولّد ثورة معرفية أخرى. لقد أيقظ هيوم Hume إمانويل كانط Emmanuel Kant من سباته الدوغمائي. إذا كان التحليل الإمبريقي للإحساس غير قادر على تعريف مفاهيم من قبيل الزمان والمكان والسببية والواجب المعياري –التي يجب، حسب تعبير هيوم، أن "تلقى في النار، كأشياء لا تمثل سوى سفسطة ووهم"– فالفكر وحده قادر حدسيا، إذن، على الإمساك بحقيقة هذه المفاهيم. تتعلق المسألة هنا بخصائص مفروضة من قبل الفكر على الطبيعة ليمنحها نظاما معرفيا [7]. هذا الصنف من الذهاب والإياب ليس غير معروف لدينا نحن الأبناء الآخرون لثورة لاحقة.

---

1 - Voir, par exemple le Phédon de Platon: PLATO, « The Pheedo » in EDMAN I. (1928), The Works of Plato, New York: Modern Library (Random House).

2 - LEIBNIZ G W. (1898), The Monadology and Other Philosophical Works, Oxford: Oxford University Press.

3 - Pour une discussion au sujet des intentions régicides de la position de Locke, voir BRINTON C (1985), The Anatomy of Revolution, New York: Random House.

4 - TAYLOR C (1985), « Interpretation and the sciences of man », Chap 1, in Philosophy and The Human Sciences, Cambridge: Cambridge University Press.

5 - LOCKE J (1959), An Essay Concerning Human Understanding. New York: Dover.

6 - HUME D (1888), A Treatise of Human Nature, Oxford Oxford University Press, Clarendon Press.

7 - KANT I. (1934), Critique of Pure Reason, London Dent.

بعد كل هذا، لا يفيد في شيء القول إننا جميعا سجناء "ثنائية الجوهر" الديكارتي، لأنها ثنائية نحاول التخلص منها باستمرار من خلال التسليم بمبادئ فريدة من مثل "عضو المنطق"، أو الغدة الصنوبرية، أو وسيط دماغ-ذهن، أو وسيط مشابه بين الحاسوب نفسه وبرنامجه. يجب علينا جميعا، وبالرغم من كل شيء، مواجهة مشكل مُحيّر حول معرفة كيفية التوفيق بين تفسيرات عالمنا، المعطاة بألفاظ مشتركة، وقابلة للقياس، وقابلة لإعادة الإنتاج، مع تأويلات هذه الأخيرة، من خلال ترجمتها إلى لغة غنية بالدلالات، لمعرفة أفضل بالطبيعة الذاتية التي يعيش فيها الإنسان، والتي من أجلها يصارع ويموت (غالبا بشكل مستتر ومجهول)، والتي حولها يبني ثقافة ليعطي شكلا لـ"حميمياته المشتركة" وكذا تنظيمها. في عصرنا مابعد-الحديث post-moderne، نريد الحفاظ على كل من التفسيرات والتأويلات في الوقت نفسه (من المحتمل أننا أردنا ذلك دائما، حتى أثناء تطورنا، وهي النقطة التي سأعود إليها لاحقا). وحدهم المعتوهون المهمّشون يضحون من واقع إحدى المقاربات لمعانقة أخرى: إن المعركة بين التفسير والتأويل، ولنبق على حالنا، تتضمن دائما منتصرا، لهذا فإننا نستمر في إثارة ثورات معرفية.

إن عبارات أسلافنا المباشرين -الآباء، والأعمام والإخوة البكر- توضح بشكل رائع عدم الرضا الثوري هذا، لكن مصير المعركة لم يُلعب أبدا. لقد سجل فرويد Freud نقاطا من خلال القيام بتجربة -الواقع السيكولوجي كما كان يسميه أحيانا- هي ذاتها إجراء للبناء، وتوافق بين سيرورات بناء يطبعه التنازع [1] . سجل بارتليت Bartlett نقاطا من خلال إثارة فكرة أن الخوطوطة schématisation (وليس الترابط) كان المبدأ المنظم للذاكرة (للذهني)[2]. حتى هذا الغشاش الهرم بافلوف Pavlov سجل نقاطا بإدخاله نظاما ثاني للعلامات (Second Signal System)، أي مدخل l'input الحواس الخاصة، والذي يجزأ ويقولب من قبل اللغة [3] . أدخل فيما بعد مواطنه فيكوتسكي [4] Vygotskyومواطننا ميد G.H.Mead [5] مفهوم استبطان الخطاب باعتباره إطارا لعمليات التفكير – ومنه للفكر نفسه. يكمن الانفجار العظيم big bang لتولمان Tolman في التخلص من نظرية الذهن باعتبارها شبيهة "بمركز هاتفي" لتعويضه بنموذج يشبه "غرفة رسم الخرائط" تتم إدارته من طرف آليات "وسائط-نهاية-استعداد" (means-end-readiness)، وهو نوع من الغائية الكشفية téléologie heuristique [6].

ثم أتت النماذج الحاسوبية بمحاسنها ومساوئها، التي لن أخوض فيها. أتمنى لها التوفيق، بالتأكيد، لكني لا أريد المشاركة في اللعبة. إن سبب ذلك بسيط للغاية: إجمالا، ليست للنماذج

---

1 - FREUD S (1949), An Outline of Psychoanalysis. New York: W W. Norton

2 - BARTLETT F. C (1957), Thinking: An Experimental and Social Study. Cambridge: Cambridge University Press.

3 - PAVLOV I.P (1949), Complete Collected Works, Vol. III, 476, 490, 568-569, 577. Moscow: SSSR (Discussions du « second système de signaux »).

4 - VYGOTSKY L. (1962), Thought and Language. Cambridge: MIT Press.

5 - MEAD G H (1934), Mind, Self and Society. Chicago: University of Chicago Press.

6 - TOLMAN EC. (1948), Cognitive maps in rats and men, Psychological Review, 55, 189-208.

الحاسوبية علاقة باهتمامي الأساس، أي تصوري للثورة المعرفية الدائمة. يتمركز اهتمامي حول الكيفية التي يتوصل بها الإنسان إلى دلالات، وحول الطريقة التي تصبح بها الثقافة الإنسانية ممكنة وفعالة. فالمقاربة الحاسوبية، وفق طبيعتها، تعتبر الدلالات شيء في ذاته، مثلها مثل المعطيات، تسجل ببساطة في عناوين الجهاز، ويمكن استرجاعها ومعالجتها حسب البرنامج المستعمل. لا يمكن أيضا للمقاربة الحاسوبية، وفق طبيعتها، تفسير إجراءات التأويل المبهمة flou والمحددة بشكل سيء، والتي تتدخل في بناء السياق وبلورة الدلالات حسب هذه السياقات: ليس فقط دلالة الكلمات، ولكن أيضا الدلالات التي تحملها الأشكال التركيبية syntaxique، مثل الصريفات déclinaisons والأنحاء المعرفية، أو تلك التي تحملها المجازات tropes والصور المجازية rhétoriques للشعر والنثر. لكن، لا تعتبروا قطعا أن ما سبق لوم مصاغ تجاه المقاربة الحاسوبية. إنها تقدم بالتأكيد مجموعة من الفوائد، بالرغم من أن فائدتها هامشية بالنسبة لي. ربما أن خلق سيكولوجيا ثقافية متناسقة تركز على بلورة المعنى، قد تساعد الباحثين الذين يتبعون النهج الحاسوبي على مساعدة أناس مثلي. إنها إذن المهمة التي سأنكب عليها في الحين.

II

أبدأ بالتسليم بوجود ثلاث صيغ أولية لبلورة المعنى، ثلاثة أشكال مختلفة لموضعة الأحداث وعمليات التلفظ énonciations والعناصر بكل أشكالها، في سياقات تسمح بتصورها وكأنها حاملة "لدلالة معينة". كل واحدة من هذه الصيغ تؤدي إلى شكل من أشكال الفهم. أعتبرها ثلاثة أشكال مختلفة للنشاط المعرفي الإنساني، وضرورية للعيش في شروط ثقافية معينة. ترتكز كل واحدة منها على جزء أساسي من المعتقدات النظرية "للحس المشترك" (folk-theoretic) كما تفترض استعدادات معرفية متوافقة قبلا تعتبر انعكاسا لتطور الإنسان في ترتيب الأولويات، ولو كان هذا غير ذي أهمية قصوى بالنسبة لطرحنا. سيكون بالفعل مثيرا للاستغراب أن الصيغ الأساسية لبلورة المعنى لدى الإنسان لا ترتكز، بشكل أو بآخر، على الجينوم génome الخاص به.

تتعلق أولى صيغ بلورة المعنى بتأسيس بين-الذاتية intersubjective وتشكيلها والحفاظ عليها. وتنجم عن القدرة الفريدة التي يتوفر عليها الإنسان "لقراءة" ما في ذهن الآخرين، بالرغم من أنها قليلة التبلور. أكثر من ذلك، يمكن أن نتحدث عن ضرورة فعلية للقيام بذلك. انطلاقا من هذا التخمين البسيط والضروري لوجود وعي أو حالات قصدية لدى الآخرين، تتفرع "نظرية الحس المشترك" (folk theory) المتعلقة بذهن الآخرين، وهي نظرية معقدة جدا وتتطور في إطار الثقافة [1]. وبدون نظرية من هذا القبيل، لن يكون من الممكن وجود افتراضات حول مقاصد الآخرين، وبالخصوص مقاصدهم التواصلية، أو حول معتقداتهم وإحساساتهم. بدون بين-الذاتية من هذا القبيل، سنكون غير قادرين على بلورة تواضعات تنظم أفعال الكلام 2 ، بالشكل نفسه الذي لن نستطيع الإمساك من خلاله بالفرق بين ما قيل وما أريدَ قوله، ولا ضبط غنى الأفعال السيكولوجية

1 - ASTINGTON J (1994), The Child's Discovery of the Mind, Cambridge: Harvard University Press.

2 - AUSTIN J L. (1962), How to do Things With Words. Oxford: Oxford University Press SEARLE J (1969), Speech Acts, Cambridge: Cambridge University Press.

وتعددها، ولا بناء العلاقات التضمينية من صنف ما بلوره كريس 1 gricéen. إن تماسك التبلور البين-ذاتي للمعنى يتفرع عن نظرية تمتلك تماسكا داخليا تتعلق بذهن الآخر، والتي نتعلم الكثير حولها حاليا. ولكن ما يمنحها أيضا تماسكها، هو استراتيجيات منقولة ثقافيا، لاستعمالها في خطاب تخميناتنا المتعلقة بالأذهان الأخرى -مثلما هو الأمر بالنسبة في "تخمين الملاءمة" لكل من سبيربر وويلسون 2 Sperber et Wilson- والذي يقودنا إلى افتراض أن كل قول تم التلفظ به من طرف المحاور مهم في سياق اللقاء، المهمة الأولى لاختبار واجبات المستمع، والذي عليه أن يحدد كيف يعبر المحاور عن مفهوم الملاءمة هذا. وباختصار، يعدّ الإنتاج بين-الذاتي للمعنى تعبيرا مبلورا لمعارفنا حول الإجراءات الذهنية لدى أفراد جنسنا. شخصيا، يمكنني القول لكم إن ما حيرني أكثر أثناء أبحاثي في السنوات العشر الأخيرة هو اكتشاف، بالاشتراك مع ميك وسكايف Mike et Scaife،[3] أن الرضّع يتابعون اتجاه نظر الراشد لاقتفاء موضوع الانتباه، وعندما لا يجدون هذا الموضوع، فإنهم يعودون إلى نظر الراشد ليتأكدوا من الاتجاه. أنات نينيو Anat Ninio وأنا شخصيا4 اكتشفنا، فيما بعد، أن الرضّع يميزون بين التسميات القديمة والجديدة، بفضل استعمال الأم تنغيما متصاعدا للعناصر الجديدة وغير المعروفة، وتنغيما متنازلا للكلمات المعروفة سلفا.

اسمحوا لي بسرعة أن أحدد أن أهمية التبلور بين-الذاتي للمعنى يكمن بالخصوص في عدم قدرتنا على التأكد منها بدقة. إنها تتعلق في حدود واسعة بتأويل السياق وتأويل التفاوض. هذا يمكنه أن يفسر لماذا أولتها النظريات الفلسفية الإنجليزية-الأمريكية للدلالة اهتماما أقل، وهي التي تمنح أهمية أكبر للمفاهيم التي تطبعها نزعة فحص المرجع والمعنى. قد تتعلق الصيغة الثانية من صيغ بلورة المعنى بالعلاقة بين الأحداث والأقوال والأفعال أو ظواهر أخرى من الصنف نفسه، وبين ما نسميه حجج الفعل arguments de l'action: والتي هي عاملُ أيّ فعل acte، ولأي هدف، وبواسطة أية وسيلة، وفي أي سياق، وبأية قيود زمنية...الخ؟ وقد سميتها صيغة الفعل 5 mode actionnel. يتعلق الأمر هنا من جديد بشكل من أشكال إسناد المعنى والذي يظهر باكرا ويتمظهر عموما بشكل مكتمل وبشكل مدهش. وكما أوضحت ذلك في كتابي الأخير "أفعال المعنى" acts of meaning 6؛ فقد تم تصور البنية التركيبية اللغة وكأنها تعكس الفهم "الطبيعي" لتنظيم الفعل، وكأن نظرية الفعل لدى الطفل الصغير كانت شرطا قبل-لساني سابق على ضبط اللغة.

---

1 - GRICE P. (1989), Studies in the Way of Words. Cambridge: Harvard University Press ; voir particulièr emelen ctha pitre 2, « Logic and conversation ».

2 - SPERBER D. and WILSON D (1986), Relevance: Communication and Cognition, Oxford: Blackwell.

3 - SCAIFE M and BRUNER J S (1975), The Capacity for Joint Visual Attention in the Infant, Nature, 253 (5489), 265-266.

4 - NINIO A. and BRUNER J.S. (1978), The Achievement and Antecedents of Labelling, Journal of Child Language, 5, 1-15.

5 - FILLMORE C W., « The case for case ». In BACH E. and HARMS R., Eds, (1968), Universals in Linguistic Theory, New York.

6 - Cambridge: Harvard University Press, 1990.

تدمج الصيغة الثالثة من صيغ بلورة المعنى العناصر الخاصة في سياقات معيارية، إنها ظاهرة لا نعرف عنها إلا الشيء القليل. يتعلق الأمر هنا بعلاقة الدلالة مع الواجبات والمعايير العامة والامتثال والانحرافات. إنها صيغة معيارية. إن وسيلة النقل اللسانية لدى الراشد، لكي يعبر عن الصيغة المعيارية لبلورة المعنى، هي الصيغة الأدبية déontique، وتتعلق بطبيعة التطابقات والمجال وحدودهما اللذان يوجدان خارج صيغة التمني optatif. إنها تعالج موضوع الشروط اللازمة conditions requises، وهو الموضوع الذي سنعود إليه لاحقا. بفضل أعمال جودي دون Judy Dunn وأعمال أخرى حول "الفهم الاجتماعي"، نعرف أن الطفل الصغير يتمكن باكرا من وضعية المقبولية canonique لمختلف أشكال كيف يفعل faire ويحس، وحتى كيف يبدو عندما يحس، وهو ما يتمظهر في لعبة التظاهر. يفهم الطفل بسرعة ما هو منتظر منه [1] . تتكون الانتظارات المعيارية منذ البداية في الإطار غير المنظم للعالم الحميمي للرضيع أو للطفل الصغير، ولكن يعاد بناؤه بسرعة ويتم تمديده عبر الاتصال مع الأشكال المؤسساتية -كما هو الأمر في القانون، والعقيدة الدينية وممارساتها، وفي العادات والتقاليد، وحتى في مجازات الشاعر ("يا روحي، لن أستطيع أن أحبك كل هذا الحب / إن لم أكن أحب الشرف أكثر")

لا تتميز الصيغة المعيارية عن الصيغ الأخرى: إنها تعبر عن نفسها بفرض قيود على الصيغتين الأخيرتين. ينمذج كلاهما، دلالة الفعل والدلالة بين-الذاتية، من قبل انتظارات المقبولية canonique: ما الحالة الذهنية، والقصدية أو تتمة الفعل، والملائمة، والمناسبة أو الضرورية، الخ. تسمح اللغة من جديد، في هذه الحالة، بتبليغ الثوابت المعيارية الموحدة standards normatifs وببنائها بنجاعة عبر الصيغة الأدبية déontique وتمييزاتها بين الإلزامي وما يدخل في باب التمني. هذا يسري أيضا على الأشكال الرمزية التي تدخل فيها المؤسسات الثقافية المنظمة لتبادل الاحترام والاختلاف، والثروات والخدمات، الخ. تحدد الصيغة المعيارية لبلورة المعنى المعايير الثقافية لما هو لائق ومناسب – سواء فيما تعلق بوضع الشروط الخاصة بالخطابات، وخصوصيات الانضباط، أو الحدود المفروضة على ما يسمى المصلحة الخاصة.

تتوفر صيغ بلورة المعنى من الصنف بين-الذاتي، والفعل، والمعيارية على استقلالية واسعة بالمقارنة مع مستلزمات قابلية الفحص، وإنتاج الحقيقة أو البرهنة المنطقية. فالدلالات المرتبطة بالحالات القصدية، وبالأفعال الإنسانية وتقلباتها، وبالمعايير الثقافية، يمكن بالتأكيد في حدود معينة، أن تنتقل إلى الأشكال القضوية لحساب منطقي (وهو موضوع سأتطرق إليه بعد قليل)، لكن هذه السيرورة تحتوي على مجازفة إفساد المعنى. ترمي دائما الترجمة القضوية، بالفعل، إلى إخراج الدلالات عن سياقها، وبالمقابل، فإن صيغ بلورة المعنى من صنف بين-الذاتية، والفعل والمعيارية تتعلق بشدة بالسياق. فبناء الدلالة انطلاقا من صيغة العزاء التالية: "أعرف إلى أي حد يكون فقدان صديق عزيز صعبا" ليس مجرد تمرين إضافي بسيط للحساب القضوي. وهذا يفترض تغليب الاتجاه النفساني psychologisme الخالص. تتوقف "الدلالة" في هذه الجملة على مدى ملاءمتها. وتتوقف ملاءمة الجملة على سياقها. إضافة إلى ذلك، فالسياق حكاية histoire يمكن

1 - DUNN J (1988), The Beginning of Social Understanding. Cambridge: Harvard University Press.

إدماجها فيه، وهو ما يوصلني إلى نقطة مهمة جدا، يجب بحثها دون تأخير: دور الحكاية histoire أو الحكي récit في بلورة المعنى.

الحكي أو الحكاية شكل من مستوى ثان يسمح بإدخال التماسك في الصيغ الثلاث الأولى لبلورة المعنى. إن الحكاية، ومن خلال طبيعتها نفسها، تتضمن فعلا action قام به عامل agent في إطار معين، والتي تخيّب فيها ((أي الحكاية)) ظن الانتظارات المعيارية أو توضع بشكل أو بآخر موضع التساؤل. وبالمقابل، تجري الحكاية على مستوى مزدوج، مستوى "الواقع"، كما يقدمه السارد أو كما هو مفترض حسب المعايير، والمستوى الذاتي، حيث يوجد أبطال الحكاية. فالحكايات أدوات بامتياز تسمح بترسيخ الصيغ الثلاث الأولى لبلورة المعنى في مجموع مبنين أكثر، بشكل يوسع أفق التأويل الذي يسمح بترسيخ فهم الأحداث الخاصة. "ماذا يجري هنا؟" إنها محاولة لإدماج الأحداث الخاصة في الدلالات المتعاقبة للحكي.

تسمح الحكايات، بالإضافة إلى ذلك، بالتعالي على الخصوصيات. فالحكايات ليست عرضا معزولا: إنها تسمح كذلك بتجسيد أجناس أكثر اتساعا. تمثل أحداث كل حكاية وشخصياتها، كيفما كانت، كما قال بذلك فلاديمير بروب Vladimir Propp، "وظائف" (functions) لجنس genre تصبح حسبه الحكاية مثالا خاصا1. لا أحد يعرف بالضبط كم عدد الأجناس الأساسية، حتى بالنسبة لثقافة معينة: كل ما نعرفه هو أنها ليست عديدة، وأنها تموت وتولد من جديد باستمرار بفضل هؤلاء الكتاب النادرين، من مثل: هيرودوت Hérodote وسان أوغيسان Saint-Augustin وسيرفانتيس Servantès وشيكسبير Shakespeare وستيرن Sterne وفلوبير Flaubert وجويس Joyce ومن شابههم. فالأجناس السردية -مثل التراجيديا والكوميديا والرواية والسخرية الدرامية لنورثروب فراي Northrop Frye- ترمز كلها إلى الوضعيات الحرجة النموذجية للوضعية الإنسانية، وتولّد أيضا في الوقت نفسه صيغا من التفكير والتعبير حول موضوع هذه الوضعيات (وما "تمثله")[2]. توجد الأجناس بشكل ما في النص وفي رأس القارئ. يمكن أن "نقرأ" ما تم تصوره ليكون كوميديا أو تراجيديا أو سخرية درامية. بمعنى آخر، الأجناس صيغ من التفكير[3]. وسواء كانت القصص في الرأس أو على الصفحة، فإنها تحمل نوعا من الضرورة السيكولوجية أو الثقافية: الأبطال الرومانسيون "يستحقون" مكافأتهم؛ والأبطال التراجيديون ضحايا فضيلتهم الخاصة، الخ. وبشكل بديهي، ليست هذه "الضرورات" من صنف الضرورات السببية أو التسلسلات المنطقية نفسه. إنها تلعب على الأقل دورا مهما جدا في تناسق الدلالات المبنية وتعميمها في إطار نسقها. لا يرتكز مثل هذا الدور لا على البرهان الإمبريقي، ولا على الحقيقة المنطقية والضرورية، ولكنه يرتكز فقط على الترجيحا. والترجيحات لا يمكن أن تختزل في روائز الاستدلال أو في عمليات الحساب المنطقي.

1- PROPP V. (1968), Morphology of the Folktale. Austin: University of Texas Press (Second Ed.).

2- FRYE N. (1957), Anatomy of Criticism, Princeton: Princeton University Press.

3- ISER W. (1978), The Act of Reading, Baltimore: Johns Hopkins University Press ; Voir aussi FELDMAN C, « Genres as mental models » (en Italien), in AMMANITI and STERN D., Eds, (1991) Rappresentazioni and Narrazioni, Rome-Ban: Laterza.

إن بناء المعنى يوازي التأويل في إطار الحكي. إذا كان الشخص الذي وجه له خطاب العزاء سابق الذكر سيؤوله على أنه "تعبير عن ودّ منافق تحركه أسباب الإطراء الوضيعة"، فإن تأويله لا يفيد فقط في معرفة المفاهيم حول الحالة الذهنية للآخر، ووسائل النضال في هذا العالم والانتظارات المعيارية، ولكنه يفيد أيضا في معرفة الضرورات الملازمة للكيفية التي تعالج بها الثقافة الحياة والموت، ضرورات تتفرع عن الأجناس التي تمنحها الثقافة، إنها إذن ضرورات سردية.

يقودنا هذا الأمر رأسا إلى الصيغة الرابعة من صيغ بلورة المعنى: الصيغة القضوية. إن بلورة المعنى في هذه الصيغة، تديره الضرورات الصورية المفروضة من قبل قواعد الأنظمة الرمزية والتركيبية والمفهومية التي نستعملها لكي نحصل على دلالات مجردة عن السياق. نحصي من بين هذه الدلالات، عددا من القواعد ليست فقط للاستدلال السببي والتبريرات المنطقية، ولكن أيضا قواعد أبسط من ذلك، إنها "غير مرئية" تقريبا. توجد من بينها القواعد التي تحدد التمييزات المشتركة من صنف "موضوع-مسند"، و"هوية-غيريّة"، وكل-جزء، الخ. إن إمكانية معالجة شيء ما باعتباره إسنادا لشيء آخر، أو واحدا من أجزائه، أو مثالا من فئة معينة، أو نقيضا لآخر، تؤكد وجود قواعد "بسيطة" تتضمن شكلا خاصا من الضرورة المنطقية [1]. إننا نتعرف على الأشياء ونعوضها ونحددها باستمرار وبسهولة بتعابير من قبيل الانضواء hyponymie، والمجاز métonymie، والتناقض antinomie، أو بتعابير أخرى. نعرف بالفطرة أن الذراع "جزء من الجسد"، وهو يختلف معنىً وبشكل منطقي صارم عن الشتيمة "جزء" من مكيدة تجري في حكاية انتقام محبوكة، حيث لا تحدد عناصرها المكونة لها من خلال "منطق" صارم، ولكن من خلال التواضعات الثقافية. وبالفعل، تشكل "الشتيمة" و"الانتقام" خرقا للمعايير الثقافية، ولا تحدد بضرورة خارج السياق، بل تستوجب كون الجزء متضمنا في الكل. عندما نتعالى بحالة مثل هذه تحت بنية "جزء-كل"، فإننا نفقد طابعا حيويا.

حتى وإن قبلنا إمكانية تفرع مثل هذا "المنطق" الصوري عن الخصائص "الطبيعية" للمعرفة (وهو ما يطابق تصور بياجي وكانط في هذا الموضوع)، فإن قواعده توصف بأنها مستقلة عن أي سياق ومجردة عنه. وتقود تطبيقاتها إلى حل وحيد وليس إلى تأويلات مختلفة. فالمطالبة "بضرورة" منطقية لا تبرر إلا بالالتجاء إلى قياس منطقي معين syllogisme. في حالة "الضرورة" السببية، نستدعي إما قواعد الاستدلال مباشرة، وإما بشكل غير مباشر القواعد المنطقية المستعارة من نموذج رياضي والمدمجة في نظرية سببية.

يجب التوفر على الشجاعة والجرأة للإيحاء لعالِم المنطق أن الضرورات المنطقية يمكن أن تولد عن مجهودات مبذولة لتهذيب الصيغ بين-الذاتية، والفعل والمعيارية وتجريدها عن السياق وإضفاء صبغة الكونية عليها. ستُتهم مباشرة وبشدة مثل هذه الفكرة بأنها "ذات صبغة سيكولوجية" psychologisme. لكن، اسمحوا لي أن أتأمل نظريا هذه النقطة، مع بعض الاعتراف بالفضل لمساعدي الجريء دافيد كالمار David Kalmar. من المحتمل جدا أن العمليات المنطقية الثلاث –

1- BECKWITH R., FELLBAUM C, GROSS D. and MILLER G., « WordNet: A Lexical database organized on psycholmguistic principles », in ZERNICK U. (ed), Using On-line Resources to Build a Lexicon. Hillsdale: Erlbaum, souspresse.

الاستنباط والاستقراء والقياس الاحتماعي abduction- ترمي إلى "تدجين" الصيغ المرسومة أعلاه، وإخراجها عن السياق. بمعنى آخر، يتجلى الاستنباط déduction في فرض معيار مجرد على مجموعة من الحالات الخاصة. "كل الرجال فانون"، لهذا، وباعتبار أن سقراط رجل، فإنه هو نفسه فان. لنفترض أن سقراط عاش أكثر من ماتوساليم Mathusalem. طبعا سيكون الجواب باللغة الطبيعية، هو أنه كان من المفروض أن يموت – كما لو أن القياس المنطقي الكوني syllogisme universel يخفي أخلاقيات مستترة، وكما لو أن هذه الأخيرة تجد أصلها في معيار راسخ. يفترض الاستقراء، ولنتأمل ذلك، عنصرا من صنف مرتبط بالفعل actionnel. صوريا، يتضمن [الاستقراء] "كل حالات حجة برهانية، وفيها نجد أن حقيقة المقدمات القياسية، وبكونها ليست بالضرورة حاملة لحقيقة النتيجة، تفيد بوجود سبب معقول للاعتقاد فيها [Encycl. Phil., VI, p. 169]. ألا يتعلق الأمر هنا بموضعة سلسلة من العناصر الخاصة في سياق مرتبط بالفعل actionnel يفترض به أن يكون مشتركا –ما يمكن أن تفعله مجموعة من الأشياء، وكيف يمكن موضعتها، وما هو العامل agent الذي يؤثر عليها، وفي أي نقطة محتملة لمتوالية معينة حدثت، الخ؟ وفيما يتعلق بالقياس الاحتمالي abduction –لفظ استعمله شارلز ساندرس بيرس Charles Sanders Peirce ليتكلم عن تشكل فرضية معينة- فإن الأمر يتعلق بتوضيح ووضع مجرد عن سياق مفاهيمه الخاصة المتعلقة بمدى قبول الآخرين (أو "أذهان الآخرين") للاعتقاد بإمكانية التأكد من هذه المفاهيم بواسطة روائز. كتب بيرس مقالا أصبح مشهورا حول مسألة "إذا-إذن" (If-then) باعتبارها الوسيلة الأساسية "لتوضيح أفكارنا"، كما يفصح عن ذلك عنوان مقاله[1]. يتعلق الأمر بالكيفية التي يصبح بها بين-الذاتي مشتركا بين الناس، وقابلا للفص، ومستثنى من الأفكار المسبقة. هلا تفضلتم بقبول ما سبق كتأمل نظري، كما قدمه لي دافيد كالمار David Kalmar! نتيجة هذا الموقف هو أن التفكير القضوي لم يظهر بمعجزة أو ولد من "عضو اللغة"، ولكنه انبثق كوسيلة للذهاب أبعد من خصوصيات الصيغة بين-الذاتية وصيغة الفعل والصيغة المعيارية.

أريد العودة قليلا إلى الطابع الوظيفي لبلورة المعنى القضوي الخارج عن السياق. ما الوظيفة التي يملؤها "فعل بيتاغوراس" "faire du Pythagore" (لنُعِد استعمال التعبير السعيد "السير الفيتاغوري" "going Pythagorean" لجون بروير John Bruer)؟ من الممكن أن نوفر على أنفسنا مجهود إعادة التعلم في كل مرة، كما قلت بذلك يوما ما[2] أو ربما (لكي نكرر نقطة قديمة أثارها بازيل برنستاين Basil Bernstein)[3]، يسمح لنا هذا بأن تكون لدينا رؤية اجتماعية أكثر امتدادا

1- Le lecteur ordinaire ne peut pas s'attendre à trouver sa voie dans les Collected Papers de Peirce. Une brillante pré sentation du pragmatisme de Peirce peut être trouvée dans: GALLIE W B. (1966), Peirce and Pragmatism, New York: Dover.

2- BRUNER J.S. (1957), «Going beyond the information given », in H. Gruber et al. (Eds), Contemporary Approaches to Cognition. Cambridge: Harvard University Press.

3- BERNSTEIN B and HENDERSON D. (1973), « Social class differences in the relevance of language to socialization » in B. BERNSTEIN (ed), Class, Codes, and Control, vol II Applied studies toward a sociology of language, London: Routledge.

بفضل عناصر كونية؟ لكن، هل اكتساب الصيغة القضوية تسمح لنا دائما بفهم أفضل للعالم؟ الإجابة الوحيدة الملائمة هي "هذا رهين بـ". هذا مثلا، رهين بما إذا كنا مشدودين إلى حكاية حب أو إذا كنا بصدد كتابة مقال لمجلة فلسفية.

إن تعمّقنا في فحص المجهودات القضوية بهدف الفهم (لكي لا نتحدث عن مجهودات العالِم والمنطقي) تعلمنا أن هذه المجهودات تفيد قبل كل شيء في تدجين تأثيرات السياق وإقصاء كل معاملة -مع كل المجازفات التي تتضمنها. يوحي بذلك تحديدا عملنا الخاص باعتبارنا سيكولوجيين معرفيين. فكروا فيما تعلمناه خلال العشريات الأخيرة [1] حول مواضيع تبدو صورية بنفس قدر صورية قواعد التفييء. وكما سجل ذلك دوغلاس ميدان Douglas Medin [2]، فإن الدراسات حول اكتساب المفاهيم ابتعدت دائما أكثر عن الاستنتاجات ذات النزعة الصورية منذ مؤلف برونر-جودنلو-أوستن Bruner-Goodnow-Austin، الذي نشر منذ خمسة وثلاثين سنة. كان مقترح تلك الفترة يفيد وكأن الفئات تحكمها القوانين الصورية التي تسمح بتوليف الإسنادات المحددة للانتماء لصنف منطقي[3]. كان فهم المعنى أو بلورته يكمن في إعادة وضع الأحداث في فئات حسب هذه القوانين الثلاث. لاحظت حينها روش Rosch وزملاؤها[4] أن الفئات الطبيعية لا تتكوّن بهذا الشكل، ولكنها منظمة حسب التشابه بين مختلف العناصر وبين العنصر البروطوتيبي protoptype الاتفاقي (الدوري طائر نموذجي أكثر من الصقر). غالبا ما يبدو أن موضَعَة الأشياء لتحديد ماهيتها تعدّ مسألة بحث عن تطابقات حسب التشابه أكثر منه مسألة احترام القوانين. لكن التشابهات معروفة بكونها غير مستقرة. برهن، بعد ذلك، سميث وميدان Smith et Medin5 على أن الفئات لا "تحدد" ببساطة حسب بروطوتيب قاعدي واحد، ولكن بالتأكيد حسب مجموعة من البروطوتيبات، كل واحد منها يخصص سياقا خاصا للظهور -الجوارح في الطبيعة، الطيور الصغيرة في الحديقة، الطيور المائية فوق الماء، الخ. أوضح كايل Keil [6] وكاري Carey [7]، أخيرا، أن ما يحفظ التناسق في فئة معينة أو في نظام من الفئات ليست هي قوانين الإسنادات، ولا البروطوتيبات القاعدية، وليس حتى العناصر

1- تجدر الإشارة إلى أن المقال صدر سنة 1995، وكان أساسه مداخلة ألقيت سنة 1993 [المترجم].

2- MEDIN D.L. (1989), « Concepts and conceptual structure. » American. Psychology, 44 (12), 1469-1481.

3- BRUNER J.S., GOODNOW J.J. and AUSTIN G A (1956), A Study of Thinking. New York: Wiley. En fait nous pro posons trois sortes de catégories, formelle, fonctionnelle et affective, dont seule la première était ainsi constituée.

4- ROSCH E (1978), « Principles of categorization », Chapter 2, in ROSCH E. and LLOYD B. (Eds.), Cognition and categorization, Hillsdale NJ: Erlbaum.

5- 39-SMITH E. and MEDIN D.L. (1981), Categories and Concepts, Cambridge: Harvard University Press.

6- KEIL F C. (1979), Semantic and Conceptual Development. An Ontological Perspective Cambridge: Harvard University Press.

7- CAREY S. (1985), Conceptual Change in Childhood. Cambridge: MIT Press.

المأخوذة في سياقها. ما كان يهم هو النظرية: إذا كان براميسيوم paramécie(****) حيوان، مثلا، يجب أن يتوافر إذن على وسائل الإحساس ببيئته، والأكل، والتنفس، والتخلص من الفضلات، وهكذا دواليك. إنها نظرية "الحي" vivant التي تحدد خصائص الفئة، وليس مجموعة صورية من الإسنادات أو البروطوتيبات التي تخدم النموذج. ومنذ الآن، تشكل موضعة عنصر ما في فئة ما آخر مرحلة من مراحل بناء نظرية معينة وتطبيقها.

كيف تولد بالضبط أغلب النظريات؟ إنها تنبثق غالبا بعد "تدجين" حكي ما un récit أو محاولة صورنته، وهو ما تعلّمناه من أعمال ميتشا لاندو Misha Landau [1] حول أصول النظرية الارتقائية أو من أعمال هوارد غروبر Howard Gruber [2] حول صيغة تفكير داروين Darwin. إن "قانون الأقوى" هو حكي متداول، وتقريبا أسطوري، قد شكل نقطة انطلاق لداروين. أسلّم عن طيب خاطر بوجود شعب للرياضيات، أو للعلوم الفيزيائية أو البيولوجية، مؤسسة بشكل جيد على عناصر صورية أو قضوية لدرجة تسمح باشتقاق متواليات منطقية دون أن يستلزم ذلك الاستعانة بأسلوب الحكايات الشعبية الكشفي. ورغم ذلك، يستمر شك ما حتى بالنسبة لهذه العلوم. قال لي نيلس بور Neils Bohr إن "الإلهام" المتعلق بمبدأ التكامل (Principle of Complementarily) أتاه من المماثلة مع واقعة عدم استطاعته فهم السرقات التافهة التي اعترف بها ابنه على ضوء الحب وعلى ضوء العدالة بشكل متواز. وبالرغم من أن هذه "الواقعة" لا تسمح لنا "بتفسير" سبب عدم إمكانية إدماج ألفاظ تتعلق في الوقت نفسه بوضع الجُزَيْءِ وبسرعته في المعادلة نفسها، يمكننا على الأقل أن نمسك بشكل أفضل بالتفاعل بين مختلف صيغ بلورة المعنى التي تتدخل في بناء النظريات.

إن أهم سؤال بالنسبة للطالب في العلوم المعرفية هو معرفة كيفية وصول الباحث إلى صياغة نهائية انطلاقا من دلالة معينة. إننا نجازف بالسقوط في فخاخ مثاليات العلوم إذا ألححنا على الدور المقتصر على الحوسبة الصورية، وعلى قابلية للفحص، وعلى شروط الحقيقة. لقد كان نصرا حقيقيا للصيغة القضوية، عندما بلور هيرب سايمن وآل نيويل Herb Simon et Al Newell برنامجا يبرهن على النظرية الرياضية وايتهيد-راسل Théorème de Whitehead-Russel انطلاقا من [كتاب المبادئ] الـPrincipia [3] . لكن ماذا يمكن قوله حينها حول مقاربة أكثر تأويلا لصانع أساطير مثل هومير Homère، الذي اشتغل بعمق على حكاياته récits لكي يخرج منها بما شكّل المحتوى

) كائن حي مجهري وحيد الخلية، مغطى بأهداب تساعده على الحركة والحصول على paramecium**** البراميسيوم (الغذاء، يعيش في البرك ومجاري المياه، شكله مستطيل يشبه نعل الحذاء، ويصل طوله بين 170 و290 ميكرون (نقلا عن: https://ar.m.wikipedia.org.(

1- -LANDAU M. (1991), Narratives of Human Evolution. New Haven: Yale University Press.

2- GRUBER H.E (1981), Darwin on Man: A Psychological Study of Scientific Creativity. Chicago: University of Chicago Press, 2nd edition.

3- NEWELL A and SIMON H A. (1972), Human problem sol ving. Englewood Cliffs NJ Prentice Hall.

الأساس لوجهة نظر الدلالات المعيارية وتلك المتعلقة بالفعل actionnelle وبين-الذاتية [1]؟ وماذا يمكن أن نقول بصدد النشاطات التأويلية لفلاديمير بروب Vladimir Propp، الذي حدد مورفولوجيا الحكايات الشعبية الأقدم بآلاف السنين من متن هلسنكي [2] Helsinki. أو أيضا، حول جيمس جويس James Joyce الذي وعّانا بأن تجليات هذا العالم التي تهز مشاعرنا أكثر، ليست هي روائعه بل مظاهره الأكثر شيوعا؟

لا أريد أن أكون الداعي إلى الأدب ولا مهاجم العلوم. هناك اتفاق على أننا نعاين هذه الأشياء، عندما نلاحظ كيف يبلور الناس دلالتهم حول العالم، والتي دفعتني إلى اقتحام ميداني ما هو مبنين جيدا وما هو قضوي. يحتمل أن لكل من الصيغ الثلاث الأولية التي تحدثنا عنها – بين-الذاتية، والمتعلقة بالفعل، والمعيارية- جذور بيولوجية في الجينوم génome. ولكنها وجدت، بالتأكيد، إمكانات ترسيخها في الثقافات التي تجعل منا كائنات إنسانية. تمنح هذه الصيغ دلالات من خلال ألفاظ الحميمية، وشروط الفعل، والمعايير الملائمة، ومن هنا بالذات، من خلال المعرفة واندماجها في قلب الصيغة السردية والفكر القضوي، يشكل تطورا مشهودا أيضا للتطور الإنساني. سأنهي بفحص سريع لكيف كان بإمكان سيرورات بلورة المعنى أن تتطور عبر هذا الارتقاء.

III

سأبدأ بتعليق مختصر على ما يمكن تسميته بأمثَلة idéalisation الثقافة لبلورة المعنى. اثنان من هذه الأمثلة معروفان لدينا مسبقا: "الأدب" بأشكاله السردية والفنية والدرامية؛ و"العلم" بإجراءاته وكيفية فحصه للموضوعات. الأولى "تُشخصِن" الدلالة وترسخها فيما يفعله الناس، وما يحسون به، وما يؤمنون به، وما يتمنونه، الخ. إنها تحدد حدود المنتظر والمقبولية canonique، وتعزز التضامن الثقافي عبر الخرافات والأساطير وصيغ أخرى، وهي كلها عناصر تطعّم دلالات الحس المشترك ("folk meanings"). بالمقابل، الأمثلة القضوية للمعنى هي في العمق "غير شخصية" أكثر. فتحت غطاء الحقيقة، تتعالى في الوقت نفسه عن الفردانية الخاصة للمستمع وعن السياق المناسباتي الذي يصلح كإطار للتعبير عن الدلالات. تقام الحقيقة عبر الفحص: الفحص يحمل حقيقة وحيدة ومتأصلة. إن دلالة وتر الزاوية القائمة hypoténuse في الهندسة المستوية، معطى بواسطة عمليات يخضع لها "المستطيل المثلث" المأمثل idéalisé، والذي لا يتعلق بتاتا لا بالشخص الذي يقوم به –سواء تعلق الأمر بمَلك أو بالمشترك بين الفانين، بهوتنتوت Hottentot أو بعالم رياضيات حامل شهادة من جامعة هارفارد Harvard-، ولا بالشروط التي يتم فيها –سواء كان وتر المثلث ذي الزاوية القائمة موضوع تقديس أو تدنيس شعائري. تتمظهر الحقائق لأنها موجودة باعتبارها كذلك، وليس لأنها محتضنة من قبل حكايات لها مصداقية. هذه هي الرواية العادية، على الأقل.

اتّخذ التعارض الصدامي بين هذين المثالين idéaux في بعض الحالات أبعادا مثيرة - خصوصا في القرن 19، دون نسيان القرن 16. لكن الوضعية المعاصرة أصبحت أكثر مرونة. وهكذا

1- Voir une perspective particulièrement intéressante sur ce problème dans: AUERBACH E. (1953), Mimesis, Princeton: Princeton University Press.

2- op. cit

استطاع شاعر حديث أن يصرح بأن "أوقليدس Euclide وحده استطاع رؤية الجمال في كل عريه nudité". ألا يعكس هذا الصراع حركات ميزان ثقافي فقط، أو أن لهذا النزاع جذور في الارتقاء ؟

اسمحوا لي أخيرا، أن أضع تصميما للخطاطة الممكنة للارتقاء. يُذكرنا المؤلّف الأخير لميرلان دونالد Merlin Donald [1] ببعض الوقائع الهامة، مثل انفجاريْ حجم المخ المرن اللذين حدثا أثناء ارتقاء الجنس الإنساني hominidés: أحدهما صادف ظهور الإنسان المنتصب Homo erectus منذ حوالي مليون ونصف مليون سنة؛ وثانيهما صادف ظهور الإنسان العاقل Homo sapiens منذ حوالي سبعمائة وخمسون ألف سنة بعد ذلك. هذان التطوران croissances غير المتناسبين لا يتعلقان بالقشرة الدماغية cortex فقط، ولكن أيضا بالمخيخ cervelet، وبالحصين hippocampe. يسمح انتفاخ المخيخ برشاقة ذو القدمين bipèdes، في حين أن القشرة الدماغية ستصبح هي أداة ذكاء أكثر تجريدا. أما فيما يتعلق بتطور الحصين hippocampe، يفترض الآن أنه شكل أساس تطور مهم جدا للوجدان affectivité الإنساني الذي تضاعف عشرة أضعاف. يتفق الأستاذ دونالد Donald على أن مرحلة ارتقاء الإنسان المنتصب Homo erectus عرفت انبثاق نظام حركي يحدث ذاتيا، بمعنى أنظمة معقدة متوفرة تحت الطلب وليس فقط نتيجة استجابة لوضعيات ملائمة من المثيرات. سمحت "حلقة التكرار" هذه، وتحت الطلب، بتكرار الحركات بهدف التمرن واللعب، أو بهدف شعائري. يمكن أيضا للتقليد الذاتي أن يبرر تنفيذ الشعائر في مجموعات، منظمة حول أفعال مركّبة، لها أهمية بالنسبة للجماعة ككل. ما علاقة نمو الحصين بكل هذا؟ طرح الأستاذ دونالد Donald افتراضا مفاده أن هذه المواقف التي أضحت شعائرية -شعائر القذف lancer، رمي المقذوفات، الخ.- كانت محاطة بقدر كبير من الوجدان. ما نعرفه عن نضج الثدييات العليا primates supérieurs يسمح بافتراض أن صغار الأنواع الجديدة كانوا ينفذون هذه الأنظمة الحركية في إطار اللعب، بشكل يطيل أمد عدم النضج. يحتوي كل هذا على بداية تمثل من خلال الفعل النشط ("enactive") [2] ، ليس فقط من قبل الفرد، ولكن أيضا من قبل الجماعة. تتعلق المسألة هنا بخطوة مباشرة "لاستخراج" الذاكرة والمعرفة ("externalizing")، لكي نستحضر ميرلان دونالد Merlin Donald.

لا نعرف أي شيء عن المظاهر المورفولوجية-الفونيمية أو المعجمية-النحوية للغة الإنسان العاقل Homo sapiens سبعمائة وخمسون ألف سنة بعد ذلك، لكن يمكننا أن نفترض منطقيا أنها لم تُفد في الأصل إلا لمرافقة تمثل الفعل ذي الصبغة الشعائرية أو توسيعه، أو بشكل أدق، تمثل الفعل المتعلق بسلسلة من الأفعال ذات الصبغة الشعائرية. يعتبر الأستاذ ميرلان Merlin أن التواصل اللغوي أحد المراحل الأهم في "استخراج" الذاكرة -إنه يستعمل تعبير "exogram" ليصف به ذاكرة مستخرجة هذا القبيل في مقابل "engram". إن أحد أشكال استخراج الذاكرة هي الحكاية، أو الحكايات المنسوجة حول شعائر الإنجاز التي تُقتسم مع الآخر. إنه الانتقال التقليدي "للشعيرة إلى

1- DONALD M. (1991), Origins of the Modern Mind, Cambridge: Harvard University Press.

2- BRUNER J., OLVER R. and GREENFIELD P M. (1966), Studies in Cognitive Growth, New York, Wiley.

مسرح" والتي وصفها بشكل بارع فيكتور تورنر Victor Turner [1]: انبثاق راوي تم اختياره كناطق باسم شعائر المجموعة. وفي هذا السياق، فإن أهم "وسيلة للذاكرة الخارجية" للثقافة الشفاهية هي الحكاية histoire أو الحكي récit. تخبرنا دراسة حكايات السكان الأصليين -كما يوضح ذلك مقال كارول فيلمان Carol Fildman حول الأجناس genres [2] - بأن الحكايات تولد الأجناس genres، أو ربما العكس.

يمكن أن يكون محو الأمية الأولي هو المرحلة الكبرى الموالية من استخراج الذاكرة. فالأثر المكتوب للماضي هو وسيلة النقل الممتازة [3] للتفكير أو للمطامعرفية métacognition – بالرغم من أن سكرايبنر وكول Scribner et Cole يذكراننا بأنه لم يستعمل دائما بهذه الطريقة[4] . ومهما كان الأمر، حسب ميرلان دونالد Merlin Donald، فالإنسان العاقل homo sapiens أثناء تطوره، توفر على ثلاث وسائل لتمثيل الماضي بشكل خارجي: عبر التقليد ذي الصبغة الشعائرية بتقنيات مكتسبة، وعبر السرد الشفوي، وعبر التمثيل الكتابي الخارجي. إن المؤسسات الثقافية نشأت من خلال وضع كل واحد من هذه الوسائل موضع التطبيق واستعمالها: الفعل faire بواسطة الكفاءات الحِرَفيّة المتطورة، وسرد حكايات مغلفة بشرعية تقليدية، والتأمل النظري بفضل مناولة الآثار المكتوبة. سيغطي باستمرار بعض هذه المجالات الثلاثة على البعض الآخر-كما هو الشأن في مفكرة يونارد Leonard. يروي بشكل حي مؤرخو العصور التاريخية القديمة الحاليين، من مثل فرنان Varnant في فرنسا وجيوفري ليود Geoffrey Liod في إنجلترا، هذه التراكبات -كما هو الأمر عندما حاول المفكرون الإغريق في القرن الرابع إغناء المفاهيم السردية لهوميروس Homers حول الفضيلة بمفاهيم هندسية بهدف الوصول إلى تعريف الخير bonté باعتبارها شكلا من أشكال التناغم والتوازي [5]. لكن هذين المسعيين لم يكونا غير متوافقين: لم يستبعد أوقليدس هوميروس. هذا سيأتي فيما بعد. فمازال الإغريق يتقبلون كل الأشكال الطبيعية لبلورة المعنى.

إن الموقف مابعد الحداثي post-moderne -الذي دعمه باحثون من أمثال ريشارد روتري [6] Rotry Richard ، وبول ريكور [7] Paul Ricoeur ، وطوما كوون Thomas Kuhn [8] أو نيلسون

1- TURNER V. (1982), From Ritual to Teather: The Human Seriousness of Play, New York Performing Arts Journal Publications.

2- op. cit.

3- OLSON D. (1994), The World in Print, Chicago: University of Chicago Press.

4- COLE M and SCRIBNER S. (1974), Culture and Thought: A Psychological Introduction. New York: Wiley.

5- VERNANT J P. and VIDAL-NAQUET P. (1988), Myth and Tragedy in Ancient Greece. New York: Zone Books ; voir aussi Geoffrey Lloyd's Stubbs Lectures at the University of Toronto in 1993: «Modes of thought in classical antiquity », en cours de publication.

6- RORTY R. (1979), Philosophy ans the Mirror of Nature, Princeton: Princeton University Press.

7- RICOEUR (1979), Time and Narrative, vol.1, Chicago: University of Chicago Press.

8- KUHN T. (1962), The Structure of Scientific Revolution, Chicago Chicago University Press.

غودمان Nelson Goodman[1]- يشبه أكثر مواقف الإغريق، بالرغم من أنه أقل براءة. وكما قلت ذلك أعلاه، يدعم هذا الموقف اعتبار الدلالات غير موجودة إلا في علاقتها بوجهة النظر التي صدرت عنها. إن هذا الموقف الرافض جذريا للاتجاه الاختزالي والرافض للاتجاه الوضعي، يبدو أنه يتوافق أكثر وبشكل جيد مع تطورنا الماضي. فهو لا يدّعي وجوب "الإلقاء في النار"، لكي أستحضر كلمات هيوم Hume، دون رحمة لكل ما لا يمكن الحجاج عليه بالمنطق أو البرهنة عليه إمبريقيا.

هذا يقودني إلى إنهاء هذه التسلية المتعلقة بالتطور من خلال "اقتراح" ثم "مطلب". أخذا بعين الاعتبار تطور الإنسان وتاريخه، فإننا نتيه نحن الآخرون المهتمون بالعلوم المعرفية عندما نلح على نموذج وحيد للمعرفية أو نموذج وحيد للتفكير، مهما كان هذا النموذج. وبنفس المناسبة، يجدر بنا أن نتحاشى نظريات بلورة المعنى التي ترتبط حصريا بحاجيات ونظرات العلم والفلسفة التحليلية. لقد بدأت بالفعل الثورة المعرفية الجارية حاليا: تفسير كيفية توصل الأفراد إلى فهم الأشياء أكثر من وصف ردود فعلهم فقط. حان الوقت حاليا للالتفات إلى مختلف أشكال الفهم، ومختلف أشكال بلورة الدلالات. وقد اقترحت العديد منها. يجب على العلم المعرفي أن يتحول إلى مُؤتمِن على معرفتنا حول إمكانيات استعمال التفكير. فإذا كان [العلم المعرفي] يبدو أنه يعكس أحيانا صدى النظرية الأدبية، وأحيانا علم التاريخ المكتوب historiographie، وأحيانا الأنتربولوجيا، وأحيانا اللسانيات، فربما يجب أن يكون ذلك بهذا الشكل. عندما ذهبت شخصيا رفقة جورج ميلر George Miller لرؤية عميدنا بهارفارد، ماك جورج بوندي McGeorge Bundy، لمناقشة خلق مركز للأبحاث المعرفية، وبسطنا أمامه موقفنا، أجابنا بنبرة سعيدة: "ولكن ما هو الفرق مع ما هو مفروض أن تقوم به هارفارد Harvard ككل؟". تتبعتُ منذ خمسة عشر يوما، دروسا بجامعة طورنكو Toronto يقدمها المختص الكبير في تاريخ العصر القديم بكامبردج Cambridge جيوفري لويد Geoffrey Loyd. كان عنوان محاضرته هو "بزوغ العلم في اليونان القديم والصين: أسئلة التمثل المعرفي". والمقال الأكثر جرأة في العشريتين الأخيرتين لمناقشة فلسفة التشريع كتبه المرحوم روبير كوفر Robert Cover[2] من كوليمبيا Columbia، حيث ركز فيه على مسألة تتعلق بمعرفة كيف تُحوّل الجاماعات المعايير إلى افتراضات للحصول على تأويلات قانونية، مسألة شغف بها الأنتربولوجي المحترم كليفورد جيرز Clifford Geertz بضع سنوات قبل ذلك في دروسه بجامعة يال Yale[3]. العالم شاسع ومتنوع. ما من نظرية اختزالية للذهن لها القدرة على أن تفيها حقها كلية، سواء كانت تلك المتعلقة بالنمط السيكولوجي القديم أو النمط الحاسوبي الجديد.

1- GOODMAN N. (1978), Ways of Worldmaking, Hassocks, Sussex: Harvester.

2 - COVER R. (1983), Nomos and Narrative: The Supreme Court 1982 Term, Harvard Law Review, 97.

3 - GEERTZ C. (1983), Local Knowledge, New York: Basic Books.